ابن زيدون

—*—

هو الكاتب الشاعر الأديب ذو الوزارتين ابوالوليد احمد بن عبدالله بن احمد بن غالب بن زيدون المخزومي الاندلسي القرطبي .

وبنو مخزوم الذين يمتُّ اليهم بالنسب بطن من قريش ، وهم عشيرة خالد بن الوليد الفاتح العظيم . جلا أجداده الى الاندلس مع من جلا اليها من عرب المشرق ، ولم تعرف بالضبط سابقتهم فيها هم وسلالتهم ، غير انه اشتهر من أعقابهم ثلاثة تسمَّوا بابن زيدون : المترجم ، وابوه ، وابنه . ويظهر ان بيتهم نشأ في قرطبة مقر الخلافة الأموية في المغرب . وكان اول المعروفين منهم ابوالمترجم ، ذكروا انه كان فقيهاً متأدباً وجيهاً عند اهل عصره مثنىً عليه بالجميل ، وكان يكني بابي بكر ، توفي بمدينة البيرة سنة خمس واربعمائة ، ونقلت جنازته الى قرطبة ، فدفن بها ، ورثاه بعضهم بقوله :

أيُّ ركن من الرياسة هيضا ... وجموم من المكارم غيضا
حملوه من بلدة نحو أخرى ... ليوافوا به ثراه الأريضا
مثل ماء السحاب ماءً صبيباً ... ليداوي به مكاناً مريضا

وللمترجم ابن يكني ابا بكر بن زيدون ، تولى وزارة المعتمد بن عباد بعد ابيه ، وقتل يوم اخذ يوسف بن تاشفين قرطبة من ابن عباد لما استولى على مملكته سنة اربع وثمانين واربعمائة .

الحالة السياسية والاجتماعية والادبية في عصر ابن زيدون — نشأ ابن زيدون في عصر انفرط فيه نظامُ حكم العرب بالاندلس ، وتقوَّضت فيه اركان الدولة الأموية ، وذهبت ريح من زاحمهم من بني حمود من سلائل العلوية الادريسية ، وتفرقت رجالات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه الدولة العظيمة طوائف وشيعاً ينضوي كل منهم الى كنف رئيس من قضاة الدولة او قوادها او ولاة نواحيها ، ينشيء بهم دويلة لعلها لا تزيد على مدينة وأرباضها ، واذا أتيح لمملكة من ممالك هذه الطوائف بسطة سلطان واتساع رقعة شملت عمالة قديمة او عمالتين ، ولكنها لا تقوى الا على مصاولة جاراتها والكيد لها ، واغراء العدو من ملوك الاسبان بها بل مناصرته عليها ، فاستطار شرر هؤلاء الملوك الاسبان ، وتدخلوا في شؤون هذه الدويلات بالقوة والسياسة ، وانتهى الامر باكثر هذه الدويلات ان استحذوا أمام هذا العدو القاهر ، ودفعوا له الجزية عن يد وهم صاغرون ، وهم على ذلك الذل يتنافسون في الالقاب وشارات الملك ، وتشييد القصور والمصانع وتنسيق المنازه والملاعب ، واقتناء الجواري والقيان واجتلاب فاره الدواب والغلمان ، وسهل عليهم تأسيس ممالكهم وتأثيل نعمتهم تلك المغانم العظيمة والثروة الجزيلة التي أفعمت بها البلاد فتوح المنصور ابن ابي عامر قبيل ذلك العهد ، فتسمى كل زعيم منهم بامير المؤمنين وتلقب بالرشيد والمأمون والمتوكل والناصر والمنصور والمعتضد والمعتمد كما يقول في ذلك ابن شرف القيرواني .

مما يزهدني في ارض اندلس اسماء معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الاسد

واتخذ له بطانة من خيرة الادباء والكتاب والشعراء والمؤلفين ، يحرص جد الحرص على الا يكون عند غيره من ملوك الطوائف مثلها ، بحيث اذا اشتهر من بين رجال هذه الدويلات نابه في قيادة حرب او تدبير ملك او نجاح في شعر او كتابة او تأليف ، خطب كل منهم وده ، فنفق ذلك سوق العلم والادب من جهة ، وولد من جهة أخرى في نفوس وزرائهم وأعوانهم دالة عليهم طرفت الى الشك حيف إخلاصهم ومؤامرة أعدائهم عليهم فعاجلوهم بالنكبات ، وباغتوهم بالحبس والمصادرات ، وربما افلت بعضهم ، فألقى بنفسه حيف أحضان مملكة مجاورة يؤلبها على دولته الاولى ، ويبدي لها وجوه ضعفها ، وما استتر من عوارها ، فتطمع في الاستيلاء عليها او انتقاصها من أطرافها ، فاما ان تفوز بإربتها ، واما ان تكون باحثة عن حتفها بظلفها . كل هذا والعدو من الاسبان يقتطع منهم بلداً بعد بلد ومملكة بعد مملكة ، وهم لاهون غارون في بذخهم وصلفهم وتحاسدهم وتطاحنهم ، فلم يفيقوا حتى ضيق عليهم خناقهم من الشرق والغرب والشمال ، وحتى تهددهم بالاجلاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن ارض الاندلس جملة ، ففزعوا الى امير المسلمين يوسف بن تاشفين ملك البربر من المرابطين يستصرخونه على عدوهم ، وينشدونه بلسان حالهم :

فان كنت مأكولاً فكن خيراً كل والا فأدركني ، ولما أمزّق

فجاءهم ابن تاشفين بجيوش البربر الجرارة فدحر الاسبان في موقعة الزلاقة الشهيرة ، وردهم الى أسوار طليطلة ، ورجع الى بلاده ، فرجع ملوك الطوائف الى ما كانوا عليه ، فكر يوسف عليهم وأخرجهم من ديارهم وأدخل ما بقي للمسلمين من ارض الاندلس في سلطانه ، ونقل كبار العلماء والكتاب وكل من يحسن صناعة الى مراكش حاضرة ملكه ، وولى عليها الولاة المسمّين بالسادة من ذوي قرابته . فحمل شأن الاندلس بالتدريج في العلم والادب ، وزالت منه أبهة الملك ، فقلت الرغبة من ولاة البربر في الاستئثار بالعلماء والادباء واستبطان ارباب الإجادة ، فتقاصرت الهمم عن التحصيل والدرس والاعتزاز بالعلم والادب ، بين الذين آثروا الاقامة بالاندلس لضعفهم عن الرحلة اولفضل تراث بقي في ايديهم عن آبائهم ، فربما جاشت نفوس هؤلاء بالشعر فأجادوه تكلفاً او تطرّبا وتلهياً لا تكسباً وتثميراً كابن خفاجة وأضرابه .

ولما كان عهد ملوك الطوائف قصير الأمد كان أوائل رؤسائه وجلة علمائه وأدبائه ممن درجوا من مهد الدولة الأموية ، وربما أدرك بعضهم عصر تجدد الدولة و بسطة سلطانها على اديم الجزيرة زمن المنصور ابن ابي عامر المعافري حيث العلوم مديدة الرواق ، والآداب وارفة الظلال ، والامن والعافية وخصب العيش وطيدة الدعائم ، فلم يؤثر تفرق الكلمة وتشتت الجماعة بادي بدء في الثقافة العامة ، فوجد كل مؤسس دولة من ملوك الطوائف من يشد أزره ويسد عوزه من أرباب السيف والقلم الذين خدموا الدولة العامرية او بني حمود العلويين وممن تزين بهم ملكه من الشعراء والندمان وارباب الفنون والصناعات الجميلة . فكان للملك منهم عدة وزراء نابهي الشأن في السياسة والعلم والكتابة والشعر . وكان له من المهندسين والبنائين والمزوقين من قاموا بتشييد تلك القصور البديعة ذوات الفرش الوثيرة والبساتين النضيرة التي خلبت لب ابن تاشفين على غرارته وعجهيته ، وجعلته ينفس عليهم عيشهم ، ويستكثر عليهم ملكهم .

لذلك نعتبر عصر ملوك الطوائف من ثمة عصر نهضة اللغة وآدابها في الاندلس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولهذا ايضاً كان كثير من أدباء هذا العصر في عداد رجال الذخيرة لابن بسام والقلائد للفتح بن خاقان على الرغم من فوضى حكامه واختلال نظامه . ولكن لما فني القرن الاولون وخلفهم القرن الآخرون فتّت تلك الفوضى السياسية في عضد الثقافة العامة ، وهاضت من جناح النبوغ في العلم والأدب وتدبير الملك والصناعات الجميلة ، وأخلّت بالرخاء ورغد العيش . فلما اكتسح ابن تاشفين بسيط الجزيرة نقل عتاد ملك الاندلس وثقافته الى بلاده كما نقل ملوكه ولله عاقبة الامور .

ولا حاجة بنا في ترجمة ادبينا ان نسرد كل مملكة من ممالك الطوائف ، ومادخل في حوزتها من البلاد ، وانما نشير بايجاز الى نشأة كل من مملكة آل جهور وآل عباد وعاقبة امرهما لارتباط سيرة مترجمنا بها .

آل جهور بقرطبة — يرجع نسبهم الى بني كلب احدى قبائل قضاعة . دخل ابو عبيدة اولهم الاندلس ، ونسل بها بنيه ، وسكنوا قرطبة ، ووزروا للناصر والمستنصر والمنصور ابن ابي عامر ، وكان منهم الوزير ابو الحزم جهور بن محمد بن جهور عين أعيان قرطبة ورئيس الجماعة بها زمن الفتنة عند انقراض الخلافة الأموية ، فانه استقدم المعتمد آخر من بويع من بني أمية بالخلافة الى قرطبة ، وبايعه ، وحمل اهلها على بيعته الا ان الجند خلعوه ، ففر الى لاردة سنة ٤٢٠ هـ ثم هلك وانقرض به ملك بني أمية ، فقام جهور بضبط امور قرطبة والحكم بين الناس بها ملازماً بيته متباعداً عن قصر الخلافة ريثما يتفق الناس على إقامة خليفة فلم يتم لهم ذلك ، واستبد هو بامر الملك على زهادة وصلاح الى ان مات ودفن بداره سنة ٤٣٥ هـ وولي ابنه ابو الوليد محمد بن جهور وكان عالماً اديباً قارئاً ثم خلفه ابنه وكان سيء السيرة ، فحاصره ابن ذي النون بقرطبة ونظاهر المعتمد بن عباد بنصرته فأرسل جيشاً الى قرطبة فاستولى عليها ، وداخلوا اهل قرطبة ، فخلعوا ابن جهور وبايعوا المعتمد بن عباد ملك اشبيلية فولى عليها احد ابنائه .

آل عباد باشبيلية — اما آل عباد فأصلهم من لخم من جند حمص الشام دخل اولهم عطاف قرية بشرق اشبيلية ونسل بها بنيه ، وكان اول مستبد منهم بالملك القاضي ابو القاسم محمد بن ذي الوزارتين اسماعيل بن عبّاد ، تولى القضاء باشبيلية واشترك في بيعة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القاسم المأمون بن حمود العلوي على اشبيلية ، ثم ثار عليه اهلها ، وولوا القاضي ابن عباد اميراً في صورة القاضي حتى هلك . وتولى بعده ابنه عباد مجاهراً بالملك ، وتلقب بالمعتضد وكان حازماً شديد الدهاء والجبروت ، فاتسع ملكه حتى عم غرب الاندلس ، ومات . وخلفه ابنه محمد المعتمد وامتد ملكه الى قرطبة ، فأخذها من آل جهور وذاع صيته وخدمه كثير من فضلاء الوزراء والادباء . وكانت اشبيلية في عصره مقصد الشعراء وقبلة كل محسن لصناعة ، الى ان نكبه الدهر واستولى على ملكه ابن تاشفين ونقله الى أغمات الى ان مات سنة ٤٨٤ هـ .

نشأة ابن زيدون — عاش ابن زيدون عيشتين : الاولى عيشته في قرطبة ، وهي عيشة تحصيل وكد ، ومزج هزل بجد ، والثانية عيشته بعد الفرار من السجن ، وهي عيشة غلب عليه فيها الجد والوقار والعظة والاعتبار .

حياته في قرطبة — ولد ابن زيدون بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ في ايام الدولة العامرية بعد موت الحاجب المنصور بن ابي عامر بسنة واحدة ، وفي اول عهد ابنه المظفر الذي كانت ايام حكمه كلها أعياداً رخاء عيش وأمان سرب ، وحكم قرطبة يومئذ يمتد باسبانيا من مدينة شنت يعقوب شمالاً الى أقصى بلاد السوس من المغرب الاقصى جنوباً ، واهل قرطبة مغمورون في الثروة التي اغدقها عليهم الناصر والمستنصر والمنصور بن ابي عامر وابنه المظفر مدة قرن من الزمان ، من المغانم الكثيرة والسبايا اللائي امتلأت بهن البلاد وجعل بخس اثمانهن شبان الاندلس يزهدون في زواج الحرائر . ففي ربوع هذه الغبطة وفي ظلال ذينك الأمن والعافية نشأ ابن زيدون في حجر أسرة نبيهة الشأن من رجالات الدولة وأعيان فقهائها . فولد ذلك فيه حب التمتع باللذائذ والطيبات والاغتباط بمشاهد الانس والجمال ، كما ولد فيه كرم نجاره علو الهمة وتطلب ذرائع الشرف والرياسة في زمانه وبيئته : مثل وعي اللغة وحكمها وأمثالها ، والإحاطة بعلوم لسانها وحفظ القرآن الكريم ورواية الكثير من الخبر ومأثور النظم والنثر وحوادث التاريخ والقصص والنوادر فتهيأ له من ذلك فوق ذكائه الفطري مادة اكسبته النبوغ في فرض الشعر وإجادة الترسل ولطف المحاضرة ، كما انتهت عادة بامثاله من أدباء الاندلس الى تسنم مرتبة الوزارة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد كاد موت ابيه وهو بعدُ يافع لم يناهز الحادية عشرة من سنّه يكون عائقاً عن استكمال ثقافته وصارفاً له عن معاناة الكد ومضض التحصيل ، شأن كثير ممن حرمهم الزمان رعي عائلهم ، غير ان النشئة اذا كانت وطيدة الاسس نبيلة القصد شب الناشئ على ماعوّده ابوه ، ولم يعوزه في استتمام سعيه غير مراقبة هيّنة من ذوي قرابته ، وذلك مانظنه مكفولاً في مثل بيت ابن زيدون ، وخاصة اذا اجتمع له في البيئة التي شبّ فيها كل مايرغب من صنوف العلوم والآداب ، وكثيرها عديد الفحول من العلماء والادباء ، لما كانت عليه قرطبة في ذلك العهد وهي يومئذ حاضرة الاندلس في كل شيء من علم وأدب ، وشارة ملك ، وجمال صناعة ، ونعمة عيش .

قضى ابن زيدون في هذه الحال بعد موت ابيه نحو ست عشرة سنة لانعرف بالتفصيل كيف قضاها ، ولكننا نستظهر انه كان في أخرياتها معدوداً من شبان قرطبة البارعين في العلم والادب المشاركين بآرائهم ومساعيهم في شبوب نيران الثورة الكبرى في قرطبة تلك الثورة التي ابتدأت بزعزعة اركان الدولة الأموية ومنازعة دولة بني حمود العلويين لهم في الاختصاص بالملك ، وانتهت بانقراض الدولتين وتقسيم البلاد بين ملوك الطوائف . وقديماً وحديثاً كانت الثورات منبتاً خصباً لعظماء الرجال وارباب المزايا كما قد تكون مورداً لحتوفهم ، ولكلٍ ماقدر له ان سعادةً اوشقاءً فنرى ابن زيدون يظهر في فتنة قرطبة من كبار اهل الرأي والمشايعين لآل جهور في اختصاصهم بامارة قرطبة ، بل سماه الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان « زعيم الفتنة القرطبية ، ونشأة الدولة الجهورية » وآل سعيه وسعي من على شاكلته الى انتخاب الوزير ابي الحزم جهور بن محمد ابن جهور حاكماً على اهل قرطبة ضابطاً لامورها حتى يتفق الناس على اقامة خليفة من الامويين ، ولكنه بدهائه ومظاهرة أمثال ابن زيدون أثّل ملكه وثبّت قدمه في الإمارة وان لم يتّسم بها ، واختصّ من أنصاره بطانةً في هيأة الوزراء والمشيرين ، وعلى رأسهم مترجمنا .

قامت دولة ابي الحزم جهور سالكة طريق الحزم والعدالة ، والتظاهر بالتمسك بآداب الدين ، والرجوع بالناس الى آداب السلف والصالحين : قال ابن خلدون في ذلك « ولم يتحول عن داره الى قصر الخلافة ، وكان على سنن اهل الفضل يعود المرضى ويشهد الجنائز

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

و يؤذن عند مسجدهم بالربض الشرقي ، و يصلي التراويح ولا يحتجب عن الناس » وقال التميمي صاحب المعجب في تلخيص أخبار المغرب « وكان ابوالحزم هذا يشهد الجنائز و يعود المرضى جارياً على طريقة الصالحين ، وهو مع ذلك يدبر الامور تدبير الملوك المتغلبين ، وكان آمناً وادعاً ، وقرطبة في عصره حرمٌ يأمن فيه كل خائف . واستمر امره على ذلك الى ان مات في غرة صفر سنة ٤٣٥ هـ فكانت مدة تدبيره منذ استولى الى ان مات اربع عشرة سنة وأشهراً ثم ولي ما كان يتولى من امر « قرطبة بعده ابنه ابو الوليد محمد بن جهور فجرى في السياسة وحسن التدبير على سنن ابيه غير مخل بشيء من ذلك الى ان مات في سلخ شوال من سنة ٤٤٣ هـ .

فدولة هذا شأنها من ملازمة الجد وايثار الضبط وبث الامن والتصوّن عن مواطن الريب والخلاعة لا تطيق العبث بملكها وفرط الدالة عليهـا حتى من الداعين اليها والحاطبين في حبلها ، اذ سيئاتهم محسوبة من مثالبها . ولم يكتف ابن زيدون وهو بعدُ شاب لم يبلغ الثلاثين باستغلال مسعاه في انشاء هذه الدولة بارتقاء منصب الوزارة والسفارة ، والانابة عن ابن جهور في مهمات الامور ، حتى سوّلت له دالته على مولاه ان يستغله ايضاً في مقارفة اللذات وغشيان مجالس الشراب ومخادنة الحسان ، فوجد اعداؤه في فتاته مغمزاً في رأي جهور ، فأوغروا عليه صدره ، وروّج كيدهم له استهتاره بامرين يستدعيان الحذر .

الاول : انه أعلن التهتك والاستهتار بحب الادبة الطائرة الصيت في ذلك العهد بالادب والجمال وحسن المحاضرة «ولادة» بنت المستكفي الخليفة الأموي ، وكان لها بقرطبة مجلس أدب ومحاضرة يحتشد فيه أدباء قرطبة وشعراؤها وابناء الوزراء السابقين والاعيان المقدمين ، تطارحهم الادب والاخبار ، وتبادههم في الملح والاشعار ، وكلهم معجب باديبها وجمالها جاهد في نيل الحظوة عندها والتقرب منها ، فاستبق الجميع الى قلبهـا ومجلسها ادبينا ابن زيدون ، وهو يومئذ وزير الدولة الجهورية . فيظهر ان جهوراً أوجس خيفةً من حشد يجتمع في بيت من بيوت الخلافة الاموية ان يصير امره الى كيد لدولته وألب على سلطانه ، وخاصة اذا كان أقربهم الى الوقوع في الشرك وزير دولته وأقدرهم على افساد القلوب عليه . ورأى مزاحموه في حب «ولادة» وحاسدوه على مكانه من وزارة جهور ان الفرصة في ابن زيدون ممكنة فسعوا به اليه ، وجعلوا ظنه يقيناً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وصادف ذلك دالة من ابن زيدون عليه لقديم بلائه عنده ، وسعيه في قيام دولته فعاجله بالحبس ، وتغدى بابن زيدون قبل ان يتعشى هو به .

او أن جهوراً انكر من ابن زيدون لهوه وخلاعته وانقطاعه الى مايكون تغاضيه عنه قادحاً في دولته جالباً على سمعته المعرة وسوء القالة ، فحسم الداء قبل استشرائه .

الثاني : ان جهوراً كان يسفره الى ملوك الطوائف ، وزعماء الموالي العامريين من البربر والسودان ، لمتنزين على أملاك الخلافة في كثير من المشكلات السياسية ، فيكلل مسعاه بالنجاح ، ونقع بلاغته في رسائله اليهم من نفوسهم موقعاً ، فحسدوا جهوراً عليه ورغب كل في استمالته اليه ، وشداً زر دولته به ، كراً يذاذلك في كل دولة عظيمة اقتسمت رقعتها ملوك طوائف وزعماء شيع ، فكانت كل دويلة منها تجهد ان تجتذب الى دعوتها فحول الرجال ، وتبذل النفيس في اصطناع العلماء والشعراء والكتاب ، تجعلهم عتاداً لها وزينة لملكها : كالدول التي تألفت من تشتت شمل الدولة العباسية : من الدول البويهية والسامانية والحمدانية والإخشيدية والفواطم ، وكالدول التي انعقدت من انحلال دولة السلجوقيين ، ودولة صلاح الدين الايوبي ، ودولة الموحدين بالمغرب ، وفي كل ذلك نرى العلماء والشعراء وكل ذي مزية يُدل على سلطانه بنفاق سوقه ، ويهدده بالانضواء الى غيره ، وفي حياة المتنبي والبديع والخوارزمي والشريف الرضي وابن نباتة السعدي وابن سينا والفارابي والرازي وابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم شاهد صدق لذلك .

فيظهر ان ابن زيدون كان يدل على مولاه بسابقته عنده ، ومكانه من نفوس ملوك الطوائف كما أشار بل صرح بذلك في كثير من شعره ونثره ، حتى في رسائله التي استشفع بها وان اجتماع كلتا الخصلتين في خادم دولة كاف لإبغار صدر المتفرد بها بمجد الملك والعظمة ، فهو لا يطيق من مؤسس مملكته دالته عليه ، ويغار على سلطته معه من مزاحمته فيها ، فيتعجل نكبته : كما فعل عبد الملك بن مروان بعمرو بن سعيد ، والمنصور العباسي بابي مسلم الخراساني وعبد الرحمن الداخل بمولاه بدر ، وعبيد الله الفاطمي بابي عبد الله الشيعي الداعية ، وغير هؤلاء كثيرون ممن لا يحصون عدداً .

نكب جهور وزيره ابن زيدون وسجنه سجن اعتقال مرفهاً عليه في العيش ومكاتبة الناس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم حرد عليه لسبب ما وجعله في سجن اللصوص والمجرمين . ولعل ذلك كان بسبب الرسائل التي كتب بها الى الناس والى مخدومه يعدد بها أعماله في توطيد امر جهور ويمتن بذلك عليه .

لبث ابن زيدون في السجن بضع سنين ، ولكن كم كانت مدتها ؟ ومتى كان مبدؤها ؟ اما الاول فيجيبنا هو عليه بقوله من قصيدته الطائية البليغة :

سنون من الايام خمس قطعتها اسيراً ران لم يبد شد ولا ربط

واما الثاني فيجيبنا هو ايضاً عليه بقوله من قصيدته الرائية التي كتب بها من السجن الى ابي الحزم جهور :

لم يطو برد شبابي كبرة وأرى برق المشيب اعتلى في عارض الشعر

قبل الثلاثين اذ عهد الصبا كثب وللشبيبة غصن غير مهتصر

ونحن نعلم ان انقطاع دعوة بني أمية من قرطبة كان سنة اثنتين وعشرين واربعمائة ، ونعلم ان مولد ابن زيدون كان سنة اربع وتسعين وثلاثمائة ، فإذن كان بدء خدمته في دولة آل جهور وهو في الثامنة والعشرين من عمره .

واذا قدرنا انه بعث بهذه القصيدة في مبدإ اعتقاله كما هو الظاهر اذ قد صرح فيها بانه لم يبلغ الثلاثين كانت مدة خدمته لآل جهور لا تزيد على سنتين ، وكان بدء اعتقاله في نهاية سنة اربع وعشرين واربعمائة ، او اول خمس وعشرين واربعمائة .

لبث ابن زيدون في السجن خمس سنين استعطف فيها ابا الحزم جهوراً واستشفع عنده بابنه ابي الوليد محمد بن جهور ، وكان اليفه وصديقه من قبل ، وبغيره من الرؤساء ووجوه قرطبة ، وبث اليه واليهم شكواه بعدة قصائد أبدعها ، ورسائل استنفد فيها جهده ، ومن ذلك رسالته الجدية الشهيرة ، فما ألانت منه قلباً ولا ثنت له عطفاً .

فأعمل الحيلة في الفرار من سجنه فتم له ذلك ، وتوارى مدة في قرطبة والزهراء حتى سكن غضب جهور عليه بشفاعة ابنه ابي الوليد محمد بن جهور وكثير من الفضلاء ، وأذن له في الظهور ، ولكنه لم يجد له مساغاً من نفوس آل جهور ومن نفسه ان يستعيد عندهم حظوته الاولى ومنصبه القديم ، فرغب في عرض ادبه وكفايته على ملوك الطوائف ، وتنقلت به الاحوال من دولة الى أخرى حتى القى العصا في مملكة آل عباد سنة ٤٤٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهنا تبتدئ حياته الثانية بعد فراره من السجن وخدمته غير آل جهور . وقبل ان نذكر شيئاً عن حياته الثانية نرى انه من المناسب ذكر شيء من اخباره مع ولادة .

اما ولادة هذه فأميرة أدبية أموية . ومع بعد صيتها جاءنا اسم ابيها مختلفاً فيه فقد كُتب في قلائد العقيان غير مرة انها بنت المهدي من الخلفاء المتخلفين الذين ولوا أزماناً قصيرة زمن الفتنة البربرية . وكذلك كُتب في تاريخ المعجب للتميمي ، و كُتب في نفح الطيب نقلاً عن ابن بشكوال انها بنت المستكفي من اولئك الخلفاء . غير اننا نرجح الأخير ، ونظن ان ذكر المهدي سهو من الفتح اوتحريف من نساخ قلائده وان كان تحريف المستكفي الى المهدي غريب لتباعدهما في الرسم فان الاوصاف التي ذكرها ابن بشكوال وغيره في ابيها تنطبق على المستكفي اكثر من انطباقها على المهدي و يضيق بنا المقام عن ذكر النصوص الدالة على هذا الترجيح .

وفيها يقول ابن بشكوال في الصلة :

« كانت أديبة شاعرة جزلة القول حسنة الشعر ، وكانت تناضل الشعراء وتساجل الادباء وتفوق البرعاء ، وعمرت طويلاً ولم تتزوج قط ، وماتت لليلتين خلتا من صفر سنة ثمانين واربعمائة ، وقيل اربع وثمانين رحمها الله تعالى . وكان ابوها المستكفي بايعه اهل قرطبة لما خلعوا المستظهر .... وكان خاملاً ساقطاً . وخرجت هي في نهاية من الادب والظرف ، حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر . وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو اهل الادب الى ضوء غرتها ، و يتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها وعلى سهولة حجابها وكثرة منتابها . تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم انساب ، وطهارة أثواب ، على انها اوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها اه » .

وفيها يقول صاحب المغرب :

« انها بالمغرب كعلية بالمشرق الا ان هذه تزيد بمزية الحسن الفائق . واما الادب والشعر النادر وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها ، وكان لها صنعة في الغناء . وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها ، فيمرفيه من النادر وانشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها من مثل ذلك اه » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أحب ابن زيدون هذه الاديبة حباً مفرطاً جر عليه وعليها سوء القالة على عفافها وصيانتها . وكانا يتهاجران ويتهاجيان حتى يبلغ بهما الهجو حد الاقذاع ، ومع ذلك صرح غير مرة في شعره بانها لاتنال ، وان وصالها في منزلة المحال . وفيها يخاطب الوزير ابا عامر ابن عبدوس مزاحمه في حبها في نوبة هجر منها لابن زيدون وصفو لابن عبدوس :

وغرك من عهد ولادة سراب تراءى وبرق ومض
هي لما يعز على قابض ويمنع زبدته من مخض

وابن عبدوس هذا هو الذي كتب اليه ابن زيدون رسالته الشهيرة الهزلية على لسان ولادة جواباً لرسالة بعث بها اليها مع عجوز يستريث وصلها ، ويستعطف قلبها ، وسنصفها بعد .

ونتبع اخبار ولادة وشعرها في الغزل والهجو والتماجن يخرجنا عما قصدنا اليه . وكل ماينبغي ان نشير اليه هنا هو تأثير حبها في ابن زيدون : شعره وخلقه . اما في شعره فذلك الغزل الرقيق ، لايصدر الا عن حب عميق ، واما في خلقه فقد خلع فيها العذار ، وجانب الوقار ، وعادى الأحرار ، وقامر بمنصبه وجاهه جد قمار ، واستعقب الحبس والاسار . وسنأتي بعد على طرف من غزله فيها وتشوقه اليها .

واذا قدرنا انه فر من السجن سنة تسع وعشرين واربعمائة فعلى اي حال قضى هذه الاثنتي عشرة سنة ، وما الدول التي اتصل بها ؟ هذا السؤال يجيبنا عليه الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان بجواب مجمل ولفظ مبهم فيقول :

« ولم تزل الايام تدنيه وتبعده ، وتسوؤه وتسعده ، وتقذف به الى كل نازح ، وتطرف أمله بعين اللاعب المازح ، حتى أحلته بلنسية وهلال ذهائه كما أقمر ، وغصن نباهته يانع قد أثمر ، وبنو عبدالعزيز غرر ملكها ، ودرر سلكها ، يفيضون بحور الندى ، ويومضون في كل منتدى ، فحل منهم محل الحميا في الكؤوس ، ووقع منهم مواقع البشائر في النفوس . وأقام بين مبرة تواصله ، ومسرة تفازله ، ومكارمة تغاديه . ومجاملة كرائح القطر وغاديه . فلما انفصل ، وحصل فيما حصل ، تذكر بعد برهة ذلك العيش ونور عمره قد صوح ، وغصن سنه قد ذوح . فلم يجد الا له طيبا ، ولم يبصر غير فننه غصناً رطيباً ، فكتب الى ابن عبد العزيز :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

راحت فصبح بهـا السقيم ريح معطرة النسيم
مقبولة هبت قبو لاً فهي تعبق في الشميم
أفضيض مسك ام بلذ سية لرياهـا نميم
بلـد حبيب أفقـه لفتى يحل به كريم
إيه ابا عبـد الالـ ـه نداء مغلوب العريم
ان عيل صبري من فرا قك فالعذاب به اليم
او اتبعتك حنينهـا نفسي فانت لها قسيم
ذكرى لعهدك كالسها د سرى فبرح بالسليم
مهما ذممت فما زما ني في زمانك بالذميم
زمن كمألوف الرضا ع يشوق ذكراه الفطيم
أيام أعقـد ناظر ي بذلك المرأى الوسيم
فأرى الفتوة غضـة في ثوب أواه حليم
الله يعلم انـ حبـ ـك من فؤادي في الصميم
ولئن تحمل عنك في جسم فعن قلب مقيم
ثم السلام تبلغنـ ـه بقلب مهديه السليم

وفي ايام مقامه ببلنسية ونشوقه الى بلاده قال :

غريب بارض الشرق يشكر للصبا تحملها منـه السلام الى الغرب
وما ضر انفاس الصبا في احتمالها سلام فتى يهديه جسم الى قلب »

وبنو عبدالعزيز الذين يذكرهم صاحب القلائد هم من أحفاد المنصور بن ابي عامر اقام مواليهم من البربر دولة لهم في شرقي الاندلس وهي المعروفة بدولة العامريين ومواليهم من البربر ، وكان للمنصور عبدالعزيز بن عبدالرحمن الناصر بن المنصور بن ابي عامر منهم دولة عتيدة دامت نحو ٤٠ سنة زمن الثورة وبعدها .

ولم نعلم المدة التي خدمهم فيها ابن زيدون وانما نفهم من سرد هذه النبذة انه غادر بلنسية لا عن موجدة عليه من ملوكها ، وانما هو الشوق الى وطنه غربي الاندلس جره الى ان خدم ملك الغرب المعتضد بن عباد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« حياته الثانية »

خدمته آل عباد - لم يطب لابن زيدون عيش في خدمة العامريين بشرقي الاندلس لبعدها عن وطنه ولأنه رأى ان لا أمل في رجوعه الى قرطبة الا اذا انتزعها منهم ملك يعيش في كنفه من ملوك الطوائف . فلم يصدق ظنه الا على ابن عباد ملك اشبيلية . وكان أشدهم شكيمة وأوسعهم رُقعةَ مُلكٍ . فأخذ يرتاد امور إشبيلية ويتعرف إمكان الرحلة اليها بمكانتها عظمائها وامتداح ملكها . ولما وجد الفرصة موانية رحل اليها . وبالغ المعتضد في الاحتفاء به . فاتخذه وزيراً وسميراً وسفيراً على شدة بطشه وجبريته وفتكه بكل عظيم يرتاب فيه من عظماء دولته حتى ولده الاكبر وولي عهده . فعجب الناس من ابن زيدون كيف اهتدي الى مداراة هذا الجبار واستدامة مودته له . وكيف عجز عن استصلاح حاله مع ابن جهور على صلاحه وعدله . وكأنهم غفلوا عن ان الدهر نعم المؤدب .

ولم يزل عند المعتضد اثيرا لمنزلة . موفور الغبطة . مقبول المشورة في الخير والشر . فأكثر عنده من الكيد لمنافسيه في الدولة والوقيعة بهم ليخلو له وجهه . ويخلص له وده . وفتك المعتضد بتدبير ابن زيدون بكثير من أعيان الدولة . وبقي مخشي الجانب حتى مات المعتضد وخلفه ابنه المعتمد فرعى فيه ثقة ابيه وأخلص له ابن زيدون نيته ونصيحته . ومازال يغريه بملك قرطبة ويراسل أعيانها يستميل جانبهم الى المعتمد حتى نجح سعيه . وساق المعتمد جيشه الى قرطبة . فانتزعها من آل جهور وضمها المعتمد الى مملكته وولى عليها ابنه سراج الدولة اسماعيل ففاجأه ثائر بها يدعى ابن عكاشة فقتله . فكر المعتمد عليها واستعادها .

وعاش ابن زيدون في دولة المعتمد محفوفاً برضاه منظوراً بعين ثقته . وكاد له بقية خصومه ومنافسيه عند المعتمد مراراً فلم يسمع لقولهم وأمعن في تحقيرهم وهجوهم . ويقال ان إلحافهم في الوشاية وقع بآخرة من نفس المعتمد . ولكن منية ابن زيدون عاجلته باشبيلية سنة ٤٦٣ هـ . وخلفه ابنه ابوبكر في وزارته للمعتمد كما ذكرنا من قبل . ومن الغريب ان الصفدي وهو مؤرخ كبير بعد ان ذكر ان وفاته كانت سنة ٤٦٣ هـ وانه دفن باشبيلية ناقلاً ذلك عن شيخه الذهبي العلامة المؤرخ الثقة عاد ونقل خطأً عن ابن بشكوال انه مات سنة ٤٠٥ هـ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في مدينة البيرة ونقل الى قرطبة ودفن بها ومولده سنة ٣٥٤ هـ . ثم لم يكشف بهذا الخطأ حتى عقب عليه بقوله « قلت ولعل الذي قاله ابن بشكوال الصواب على ان ابن بسام قال في الذخيرة توفي سنة ٤٦٣ وكان يخضب بالسواد » . مع انه لو راجع نفسه قليلاً لوجد انه في سنة ٤٠٥ لم تكن دولة بني أمية ولا دولة بني حمود قد زالتا من الوجود . فكيف كانت توجد دولة بني جهور وزراء العامر بين ودولة بني عباد وزراء الحمود بين وهما الدولتان اللتان خدمهما ابن زيدون . وأغرب من هذا ان بعض من كتب في حياة ابن زيدون من العصر بين جعل هذا خلافاً في موته ومكان دفنه مع انه نفسه نقل في اول ترجمة ابن زيدون ان الذي مات سنة ٤٠٥ بالبيرة ونقل الى قرطبة ودفن فيها هو والد ابن زيدون . والذي جر الى هذا الخلط بين كليهما ان ابن خلكان بعد ان ذكر وفاة ابن زيدون على صحتها قال : « وذكر ابن بشكوال في كتاب الصلة اباه وأثنى عليه وقال : كان يكنى ابابكر وتوفي بالبيرة سنة خمس واربعمائة ونقل الى قرطبة فدفن بها . وكانت ولادته سنة اربع وخمسين وثلاثمائة وكان يخضب بالسواد » .

فيظهر ان الصفدي صحف فقرأ لفظ (أباه) بالموحدة (اباه) بالمثناة ولم يفطن لوقائع التاريخ وجاراه معاصرنا فنقل هذا الخلاف الموهوم ولله في خلقه شؤون .

اخلاق ابن زيدون — شب ابن زيدون على سعة علمه وغزارة ادبه وكرم محتده مولعاً بالطرب مشغوفاً بمبادرة اللذات ومعاقرة الشراب ومخادنة القيان ومؤانسة الحسان كبير الأثرة بالتفرد من ذلك بكل مرغوب . فجرّ ذلك عليه حب ولادة ومنافسة دهاة الادباء في الاختصاص بها وعرض نفسه للهلاك مراراً من جرائها .

ولكثرة ثقته بنفسه لما يفطن لكيد خصومه عند ابن جهور حتى وقع في شرك نكبته . فخرج من السجن ناقماً على النظراء والمنافسين متحيناً الفرصة لتعجيل النكاية بهم قبل ان يعاجلوه . وكانت نكبة جهور درساً بليغ الاثر في نفسه استفاد منه بقية حياته فعلمته حسن المداراة وتملق الرئيس فنجا من يد ذلك السفاح عباد المعتضد بل جعله سيفاً ماضياً يقطع به أعناق خصومه . وكان ابن زيدون مع نزقه واستهتاره في شبابه وغدره باصحابه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عالي الهمة . لا يقنع من دولة ملك الا بافتراع منصب وزارته . والاخذ بناصية منادمته ومشاورته .

علمه وأدبه وبديهته — نشأ ابن زيدون في عصر اختل فيه نظام ملك بني أمية فجأة بثورة البربر المشؤومة . وقامت هذه الثورة وآثارا لحضارة في كل شيء من علم وادب وفنون ضاربة بجرانها في قرطبة . فكانت غاصة بالعلماء والفقهاء واللغويين والشعراء والمحسنين في كل صناعة ممن نبتوا في عصر المنصور الهنيّ . فصادف ابن زيدون مَنْ نهل من علمهم وكرع من أدبهم . وكان ابوه وعشيرته من اهل الفقه والادب فلم يكن اقباله على ما اخذ به أهلوه انفسهم بدعاً من نفسه . وانما جرى في مضمارهم فبذهم علماً وادباً . وبعد صيت وعلو همة .

« للبحث صلة »

مصر (القاهرة) : احمد الاسكندري
عضو المجمع العلمي العربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net